المثقف العربي وآفاق مشروع الوحدة العربية

نور الدين بن بلقاسم

يمر الوطن العربي بمرحلة دقيقة على اثر الهزائم التي تلاحقت عليه، هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة حزيران ١٩٦٧، وكارثة كامب ديفيد سنة ١٩٧٣ وغزو لبنان من قبل القوات الصهيونية عام ١٩٨٢، وكان استمرار النزيف في لبنان واستشراء الخطر الصهيوني واتساع مطامعه في الوطن العربي وهجرة اليهود بكثافة إلى فلسطين بعد انحسار نفوذ الاتحاد السوفياتي وسعي الصهيونية العالمية إلى تكريس الفئوية والطائفية في كل قطر عربي ـ كل ذلك كان من المؤشرات الخطيرة التي وصل إليها الواقع العربي الراهن.

وقد زاد من حدّة المأزق النسق البطيء وغير المنسجم للتنمية الاقتصادية، وهو ما حدا بمحاولات التنمية إلى التعثّر، لأنها حدثت في الأغلب الأعم ضمن نموذج رأسمالي يكرِّس التبعية بدل أن يكرِّس تطويقها، وهو ما أدّى بدوره إلى تزايد ديوان الوطن العربي في الفترة الأخيرة بشكل مهول، برغم تدفق أموال البترول التي تستثمر في غير البلاد العربية، وقد ارتفعت معدلات التضخم بسبب ارتباط الاقتصادات العربية بالسوق الغربية ولم يتحقّق ـ لذلك ـ الاستقلال النقدي المنشود، وتعثّرت خطوات التكامل بين الاقتصادات العربية بسبب ولاء كل منها للاقتصاد الرأسمالي، فلم تنشأ لذلك السوق العربية المشتركة التي كان من المؤمل أن تؤدّي إلى تحرّر الاقتصاد العربي.

وقد نجح الغرب الاستعماري في تحويل ما سمي بأزمة البترول إلى أزمة مالية وأزمة ديون، كما نجح في تحويل الموارد الاقتصادية العربية إلى أداة للسيطرة على الدول العربية نفسها واحدة واحدة. وقد تمّ التضييق على محاولات التصنيع وخنقها في مهدها، لأن السيطرة الاقتصادية الغربية لا تسمح بإنتاج صناعة تغدو بالنسبة لها منافسة وعناء مُكَلِّفاً.

ولم تستطع الأقطار العربية أن تطوّر الإنتاج الفلاحي، وبذلك لم تستطع أن تحقّق الأمن الغذائي برغم تزايد نسبتها السكانية تزايداً متسارعاً، وظلّت الشركات المتعدِّدة الجنسيات أداة أساسية لإذكاء التبعية في الوطن العربي.

وصار الاقتصاد العربي كله تحت رحمة وتوجيه وتخطيط صندوق النقد الدولي الأداة الرئيسية لاجتلاب الفوائد والفوائض ونقلها إلى الاقتصاد الغربي والأمريكي[١].

أمّا على المستوى الاجتماعي فقد أدّى التدخل الاستعماري المباشر وسيطرته على موارد النفط في الوطن العربي إلى إحداث خلل كبير في التوازن بين القطاعات الاجتماعية والجهات، وتسبَّب ذلك في استفحال الفقر واستشراء الهجرتين الداخلية والخارجية في العديد من الأقطار العربية الأخرى، وقد أدّى هذا التفاوت في حظوظ الثروة إلى تفكك المجتمع العربي وتعميق الهوّة بين طبقاته، فانحلّ بسبب ذلك التماسك الاجتماعي المتمثِّل في الأسرة والقبيلة، وحصل نوع من المسخ انعكس على الطفل والمرأة العربيين ونشأت التجمعات الهجينة في المدن التي داهمها الاكتظاظ فانتشر العنف والانحراف، مما أعطى للواقع الاجتماعي والاقتصادي صورة رأسمالية هجينة لا تعرف العقلنة والتخطيط العلمي والمستقبلي[٢]. وهو ما زاد في حدّة المأزق الاجتماعي، إذ ملَّ المواطن العربي من الوعود والتسويف بجنّة أرضية موعودة، وبحياة ملؤها الحرية والديمقراطية بالقول، غير أن العسف والارهاب يسيطران عليها بالفعل، وقد استهلك بحث المواطن العربي عن قوته اليومي كلّ وقته. فلم يعد يجد الوقت للتفكير في الديمقراطية والحرية، ولا في الوضع الكارثي الذي آلت إليه الأمة العربية في ظل غياب الديمقراطية التي هي أساس من أسس الوحدة.

ولم يعد يهتمّ بمصير الأمة العربية ـ نتيجة الضائقة الاقتصادية ـ إلا أولئك المُنَعَّمُون، وكان اهتمامهم مصلحياً خالياً من الشعور القومي، لأنهم ـ في أغلبهم ـ كانوا وما زالوا على استعداد لبيع الوطن بالبطن في سبيل الحفاظ على امتيازاتهم[٣].

وعلى المستوى السياسي بدا واضحاً لكل مواطن عربي يحمل ولو ذرّة من الوعي أن القوى الكبرى وعلى رأسها أميركا وحليفتها اسرائيل تسعى إلى أن تتقاسم النفوذ في الوطن العربي وتتحكّم في مصيره، وتسعى كذلك قدر جهدها إلى أن يبقى على الوضع السياسي والثقافي والاقتصادي المتشرذِم الذي هو عليه، مستغلّة في الأثناء مراكز قوى عربية موالية للغرب ونافذة اجتماعياً وسياسياً، وحكومات تدّعي الوطنية وتحمل أحياناً على عاتقها شعار القومية ولكنّها تسير بحسب سياسات القوى الكبرى، وتخطو بخطوها، وهي قائمة بدور العميل المخلص لها. إن هذه القوى العربية وهذه الحكومات العميلة هي التي يستعملها الغرب الاستعماري لتقوم بدور الفرامل يضغط عليها كلّما رغب في إيقاف عربة التقدم في الوطن العربي أو الحدّ من سيرها.

وقد كان التشرذم السياسي في الوطن العربي من أسباب ترسُّخ وتعمُّق الكيانات القطرية إما لأسباب تتعلّق بالحدود الموروثة عن الاستعمار، أو بسبب الصراعات المذهبية، أو بسبب سياسات المحاور والتحالفات.

وبقيت السلطة محتكرة للحكم وحدها دون الجماهير ولم تتطوّر في اتجاه الديمقراطية، حتى يقوم الحكم على أساس حرية الاختيار[٤]. وقد ظلّ غياب الحريات الأساسية كحرية الاجتماع وحرية الانتماء وحرية إنشاء الأحزاب والمنظمات وحرية الرأي السِّمة الأساسية للحياة السياسية العربية الحديثة.

وصار لذلك الحديث عن حقوق الانسان في وطن عربي يعاني فيه المواطن من ضروب القهر ما لا يوصف ـ ضرباً من الترف لا صلة له بالواقع.

ذلك أن إقرار حقوق الانسان واحترامها تعني الاقرار بحرية المواطن وكرامته والاعتراف بحقّه في تسيير شؤون أمته. ولهذه الأسباب لم تتحقّق في الوطن العربي إلى يوم الناس هذا في سياسة مخلصة تراعي مصلحة الأمة قبل مصلحة الحكّام، وتسعى بتلقائية إلى الوحدة.

هذا هو التشخيص الوصفي لنسبة من علل الواقع العربي، فما هي الصعوبات التي تقف أمام الوحدة؟ وما هو دور المثقف العربي في تذليلها؟ وكيف يمكن أن نعمل على إنجاح مشروع الوحدة باستغلال المتغيّرات في عالمنا المعاصر وطاقاتنا الذاتية على اختلافها.

وللإجابة على هذه الأسئلة سنبدأ بإيراد أمثلة من الصعوبات التي وقفت حاجزاً أمام الوحدة العربية إلى درجة تمييع مصطلح «الوحدة»، حتى صار في ذهن المواطن شعاراً سياسياً لا غير.

وهذه الصعوبات أو العوامل التي وقفت أمام الوحدة تتعلّق بطبيعة البنيات الاجتماعية والسياسية وبالتصورات والإيرادات والأفراد في الأقطار العربية. وأعتى عوائق الوحدة يتمثّل في أن عملية الاستنهاض والدعوة إلى الوحدة والتخطيط العلمي لها لم يكن كل ذلك يتوقّف على الاستعداد الذاتي وعلى حسن النية وصفاء الإرادة بل كل ذلك يتوقّف على مؤاتاة العوامل الخارجية ومدى استجابتها للنهضة والوحدة العربية. ومن هذه العوامل الخارجية «وجود واقع عالمي جديد انتقل فيه مركز الثقل والقرار من المنطقة العربية ذاتها إلى المنطقة الأوروبية، إذ أفاق الوطن العربي على توازن عالمي جغرافي جديد أخذت فيه قوى الغرب تتقاسم النفوذ على مناطق العالم»[٥].

وقد أدّى هذا الواقع الجديد إلى الاستعمار المباشر والاستعمار الجديد المقنّع والامبريالية ووكيلتها الصهيونية العالمية، وهي قوى سعت وتسعى إلى سلب الأمة العربية حرية القرار وتحاول سلبها حرية الوجود، وذلك ببثّ الفتنة فيها، وخلق الصراعات المستمرّة في أقطارها وإثارة العرقية والطائفية وتغذيتها بالحقد الصليبي، رغبة في أن يتلهّى العرب بالصراع الهامشي عن التنمية بمختلف فروعها، حتى تزداد هذه القوى سيطرة لا على الإرادة السياسية العربية فقط بل تزيد فوق السيطرة السياسية الاستغلال الاقتصادي والاستلاب الثقافي والفكري[٦].

وقد جدت الأمبريالية الأميركية والصهيونية، منذ حرب حزيران، إلى إجهاض كل محاولة وحدوية وإلى ضرب كل المخلصين للأمة، فقد أظهرت الصهيونية عبد الناصر في مظهر هتلر[٧] وحطّت من قيمة الجيش المصري الممثّل للشعب، وأعلت من قيمة المماليك[٨]، وجَدّت في قتل كمال جنبلاط على أيدي عملاء من العرب، لأنه كان حجراً صلداً أمام الطائفية في لبنان، وكان عضداً قوياً لقضية فلسطين. بل تعدّت هذه القوى المعادية، إلى ما هو أخطر فرأت في العقل العربي خطراً عليها، فعمدت المخابرات الصهيونية إلى تصفية العلماء العرب جسدياً بعد ضرب اسرائيل لمفاعل تموز العراقي سنة ١٩٨١[٩] واغتيل كل من حسين مروّة وصبحي الصالح، وهما مثالان جمع كل منهما بين الأصيل والحديث في الفكر.

والصعوبة الثانية هي ما تلاقيه الوحدة في الوطن العربي من مقاومة داخلية وخارجية. أمّا القوى المعارضة الداخلية فتتمثّل أساساً في الرأسمالية العربية الهجينة التي تسعى إلى رسم السياسة العربية كما تشاء مصالحها المنسجمة مع مصالح الغرب الاستعماري في المنطقة. هذه الرأسمالية تحالفت مع ضحالة الثقافة ووراثة العرش وعقلية القبلية وسعت باستمرار إلى معاونة الأعداء على تفتيت الأمة العربية من الداخل وتكريس عقلية اللامبالاة بوحدتها لأن هذه الرأسمالية الهجينة لا تستطيع الحفاظ على نفسها وعلى النظام السياسي المتخلّف الذي يشدّها وتشدّه إلاّ في مجتمع قطري ضعيف وانعزالي، وهذه الرأسمالية هي التي تتظاهر الآن بالوطنية ومناصرة القضايا القومية ولكنها في الآن نفسه وهي تتولّى مقاليد القيادة في الوطن تجسِّد سلوك الانحراف وسياسة الفرقة، ونظم التخلف، وأغراض الأمبريالية والصهيونية العالمية في المنطقة المتنافية مع أهداف وقوانين حركة القومية العربية والتحرّر العربي، والمتمثّلة في الالتزام

بسياسة نضالية شديدة البأس في مواجهة القوى المعادية، بحيث تمكّن هذه السياسة القوى الاجتماعية الحيَّة في الوطن العربي من إطلاق عنانها كي تصنع المستقبل على النحو الذي يطمح إليه مجموع الأمة العربية، وحتى يكون هذا المستقبل مُقاماً على أسس أخلاقية نابعة من تراث عربي إسلامي غني بأبعاده الانسانية[١٠].

أمَّا المقاومة الخارجية للوحدة فقد أشرنا إليها آنفاً وتتمثَّل في قوى الهيمنة الاستعمارية والصهيونية ـ هذه القوى التي انكشف زيف دعوتها للتحضّر بحرصها الشديد على أن يقبل العرب الأمر الواقع المتمثِّل في هذه الخريطة الفسيفسائية التي تجمع أقطاراً ذات أنظمة سياسية متنافرة ومصالح إقليمية متضاربة وولاءات للغرب مختلفة، وقد تجلَّت المقاومة الاستعمارية في محاربتها لرموز الاستنهاض العربي ابتداء من عبد القادر الجزائري إلى عبد الكريم الخطابي إلى عبد العزيز الثعالبي إلى جمال عبد الناصر إلى معمر القذافي إلى صدَّام حسين...

وقد اعتبرت القوى المعادية للعرب هذين الأخيرين أخطر رجلين على مصالح الغرب الاستعماري في الوقت الراهن[١١] بعد عبد الناصر، ولذلك جنَّد الغرب الاستعماري الإعلام الصهيوني للإطاحة بهما.

دور المثقف العربي في مشروع الوحدة:

إن دور المثقفين العرب في المراحلة الراهنة يتمثَّل ـ بالإضافة إلى التصدِّي لما سبق ذكره في ما يلي:

أولاً: دمج الهويات الجزئية في الهوية العربية.

فمن البارز للعيان انتماء المواطن العربي إلى هويات عديدة نذكر منها:

ـ الهوية الطائفية: وهي شعوره بالانتماء إلى الطائفة.

ـ الهوية القبلية: وهي شعوره بالانتماء إلى القبيلة التي ينحدر منها.

ـ الهوية المحلية: وهي شعوره بالانتماء إلى المدينة أو القرية التي يعيش فيها.

ـ الهوية المدنية أو القانونية: وهي شعوره بالمواطنة في البلد الأجنبي الذي يحمل جنسيته.

ـ الهوية الوطنية: وهي شعوره بالانتماء إلى القطر[١٢].

إن انتماء المواطن العربي إلى هذه الهويات العديدة جعله متذبذباً، وجعله في الغالب يُغَلِّب الهوية المحلية على الهوية القومية.

وقد سعى المقاومون للوحدة في الداخل والخارج إلى تعزيز هذه الهويات التقليدية خاصة منها العائلية والقبلية باعتبارها عوامل تجزئة بين العرب.

إن دور المبدعين العرب يتمثَّل في السعي بكلّ سبل الإبداع إلى توجيه هذه الهويات الفرعية كي تعزّز وتدعم الهوية الأساسية وهي الشعور بالانتماء إلى أمّة عربية واحدة، ولا يكون ذلك متاحاً إلاَّ إذا حرَّض المثقفون العرب الجماهير الشعبية على تغيير هذه الأنظمة السياسية المطلقة التي قُدَّت دساتيرها ومؤسَّساتها على قَدِّها بصورة لا تعكس مصالح الجماهير بقدر ما تعكس مصالح الفئات المتحالفة مع السلطة والماسكة بزمام السياسة والاقتصاد[١٣]، بحيث غَدَت هذه الدساتير المَقْدودة على قَدِّ مصالح الفئات النَّافذة تعتمد على **سُبَات الوعي** لدى أغلبية الجماهير الشعبية بفعل انتشار الأميّة فيها لنعمل ـ في غياب هذا الوعي ـ على تجميد النزوع إلى الوحدة أو إلى إحالة الوحدة إلى شعار يُرفع لاستقطاب هذه الجماهير وتوجيهها الوجهة المرسومة للأنظمة الحاكمة.

وحينما يسعى أهل القرار إلى تحقيق الوحدة فإنهم لا يخطِّطون لها اقتصادياً وسياسياً وتربوياً حسبما تقتضيه مصالح القاعدة العريضة في الهرم الاجتماعي، وإنَّما يجعلون منها غالباً وحدة فوقية لأنظمة سياسية تتهادن في فترة، وحينما يتغيَّر مزاج هذه الأنظمة تفشل الوحدة التي يشكِّلها أصحاب القرار على الصورة التي يريدونها هم لا على الصورة التي تريدها الجماهير وتقتضيها مصالحها العاجلة والآجلة.

إنَّ دور المثقفين العرب اليوم يتمثَّل في مهمتين أساسيتين لتحقيق مشروع الوحدة: **الأولى**: قلب (**سُبات الوعي**) الذي تستغلّه الأنظمة الديكتاتورية وتُنَمِّيه ـ لتبعد الجماهير عن المشاركة في تشكيل القرار السياسي ـ إلى (**وعي السُّبات**) الذي يحيل الواقع إلى الفترة الشبيهة بالسكون السابق للعاصفة.

فإذا ما انفجر (وعي السُّبات) في الجماهير ثارت على واقعها المنهار، واستطاعت به أن تُغيِّر هذا الواقع إلى صالحها، وذلك بأن تزيح عن طريقها تلك الطبقات السياسية والاجتماعية الطفيليّة التي ترتقي في فترة سبات الوعي إلى صنع القرار، فتأخذ دون أن تُعطي، وتُثري دون أن تُضَحِّي، وتُدمِّر كل شيء نبيل في الأمة بعد أن تحقّق لنفسها كل ما سعت إليه من امتيازات[١٤]، لأن هذه الطبقات تكون وقتها مصابة بالتحلُّل والفساد، وهو ما يجعلها تقف ـ بسبب فسادها ـ في وجه كل محاولة لدفع الوطن العربي نحو الوحدة التي هي أساس التقدّم والقوة.

و(وعي السُّبات) هذا لا يحصل في فترة وجيزة إلاَّ بِتَحمُّل المثقفين العرب لأعباء المهمّة الثانية وهي أن يعملوا على بثّ النزوع إلى الوحدة في الناشئة بواسطة نظام تربوي واحد متفق عليه يقرِّب ولا يبعِّد، كما هو الحال في الأنظمة التربوية القطرية اليوم التي أُبعدت كل البعد عن التحسيس بضرورة الوحدة بدعوى أن يكون العلم محايداً.

والواقع أن مسألة الحياد في المؤسسات التعليمية والتربوية مسألة مفتعلة اختلقها دعاة الفرقة والتَّشتُّت وكرَّسها عملاء المخابرات الغربية في المؤسسات التعليمية للأقطار العربية وأخفوا عوراتهم بغطاء الحياد العلمي..

ومن عوامل تقوية وَعْي السُّبات أن يحرص المثقفون والمبدعون العرب على كتابة النصوص الإبداعية بلغة عربية فصحى، وخاصة

النصوص التي تقدّم للمسرح والسينما، لأنه كلما ازداد وعي الناس بضرورة استعمال اللغة العربية في العلم والثقافة والمعاملات اليومية، تطوّر وعيهم بأهمية الوحدة وعملوا على تحقيقها.

والمهمة الثالثة التي على المثقفين العرب الاضطلاع بها، تتمثّل في العمل على أن يتفادى الوطن العربي في المرحلة الراهنة الخطأ السابق الذي وقعت فيها المحاولات الوحدوية السالفة[15]، تلك المحاولات التي قدّمت فيها حركة القومية العربية عنصر التوحيد على عنصر التغيير، وهو ما أدّى إلى فشل هذه التجارب[16].

إن طرح التوحيد كشرط مسبق وتأخير جهود التغيير أو الإصلاح الداخلي العميق للمجتمع العربي جعل القائمين على شؤون السياسة يبرّرون الركود والجمود في الواقع العربي بشعارات التوحيد التي لا تحقّق الوحدة، وهو ما انعكس سلباً على الجماهير فجعل الضمير الجمعي في الأمة يفتر شيئاً فشيئاً، ويقلّ حماسه للخطاب الوحدوي لعدم اقتران هذا الخطاب الشعاراتي بالتطبيق من ناحية، ولاصطدام مشاريع الوحدة السابقة بواقع اجتماعي يتّصف بالجمود والتحجّر من ناحية أخرى، بينما مشروع الوحدة يتطلّب واقعاً اجتماعياً متغيّراً يساير حركة التاريخ. ولا شيء يلقّح الواقع بمصل التغيير مثل عمل المثقفين على دفع الآخرين إلى نقد الذات، وذلك حتّى يتعوّد الناس معرفة النقائص والكمالات وتحديد أسبابها، لأنّهم باكتشاف النواقص يزدادون وعياً بالواقع، ويحفّز ذلك الوعي المجموعة الوطنية والقومية على تطوير الواقع العربي ذاته، فإذا ما تطوّر الواقع العربي وتغيّرت فيه العقليات فإن فترات التاريخ المتعاقبة على الأمّة ستكون كلها فترات نضال في سبيل تطوير الشعور القومي الذي ينمو طرداً مع إنشاء سلطة المثقف وتنميتها وإشاعة الثقافة في السلطة ودمجها بالعمل السياسي، وعندها ستندمج الخصوصيات الإقليمية لتؤلّف خصوصية الأمّة وفرادتها التي تبرز غالباً من خلال إنجازاتها الحضارية.

والمهمة الرابعة التي على المثقفين العرب القيام بها تتمثّل في أن يحرصوا كل الحرص - للإسراع بتحقيق مشروع الوحدة - على إعادة التفاعل بين العروبة والإسلام وقطع الطريق على أولئك الذين يدعون إلى التفريق بينهما عن جهل أو سوء نيّة لزعزعة الأمّة من الداخل وتقسيمها إلى شقّين متنازعين باستمرار، بحيث يتسنّى للقوى الاستعمارية تغذية هذا التنازع باستمرار بين عروبيين وإسلاميين لإيقاف حركة التنمية في الوطن العربي وجعل العرب خاصّة والمسلمين عامّة على هامش التاريخ.

فالعروبة هي الإطار الذي وجد فيه الإسلام، غير أن هذه العروبة كانت ضائعة في الصحراء بين قبائل منقسمة متناحرة ممّا جعلها مَطْمعاً للغزاة - من فرس وبيزنطيين وأحباش - على تخوم الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً، فجاء الإسلام وأخذ بيد العروبة وجعلها قائدة للحضارة، و«شكّل هذا الدين الجديد نداء قوياً لوحدة العرب وكان محرّكاً رئيسياً لعملية التشكّل القومي وبناء النسيج الحضاري للأمة العربية»[17].

إن تأكيد المثقفين على ضرورة الالتحام بين العروبة والإسلام سيوفّر الدافع القوي المساعد على حثّ الخطى لتحقيق مشروع الوحدة لأنّ هذا المشروع المصيري لن يتحقّق إلّا بالمصلحة بينهما. أو قل فضح الخصومة المفتعلة بينهما، وكشف مسبّبيها وأهدافهم وعلاقاتهم المشبوهة بأعداء الأمّة. فكلما تفاعلت العروبة مع الإسلام قويت حركة القومية العربية وحافظت الأمة على السُّلَّم القِيَمي الذي تستمدّ منه باستمرار دوافعها نحو الأحسن في العلم والاقتصاد والاجتماع، وقويت بذلك لحمتها وتآزرت، وعندئذٍ لا يستطيع أيّ متسلّط أن يزيّف وعيها، ويحطّ من قدراتها وأهمية دورها في التاريخ، وعندئذٍ لا تستطيع الطبقات الطفيلية مهما كانت مرتبتها الاجتماعية أن تزرع فيها القيم الفاسدة التي تقتل فيها الإحساس بحركة التاريخ بحيث لا تهتمّ بقضاياها المصيرية، وعندئذٍ تكون الأمة العربية هي مركز الدائرة في العالم الإسلامي وقلبه النابض، باعتبار أنّ العروبة هي إطار الدين وحاميته وناشرته والداعية إليه في العالم، وأنّ الإسلام هو تاج العروبة وجوهرها الفلسفي القائم على تأكيد الإخاء بين الشعوب وإقرار العدالة والحرية والمساواة بين الناس.

والمهمة الخامسة تتمثّل في أن يسعى المثقفون العرب قدر جهدهم إلى تحسين كافة القوى الوطنية والشعبية بأن الاستقلال الحق والديمقراطية الفعلية وتحقيق مشروع الوحدة الضامن لأمن الوطن العربي واستقراره لا يكون إلا بامتلاكنا لزمام «العلم والتكنولوجيا».

ذلك أن الغرب الاستعماري اليوم لا يرغب فقط في السيطرة على الثروة وإنما يرغب كذلك في احتكار العلم ومحاربة من يحاول امتلاكه منا، وليس أدلّ على ذلك من سعي اسرائيل والغرب الدائب إلى قتل البذرة الجنينيّة للطاقة العلمية والتكنولوجيا للعراق، فعمدت اسرائيل بتشجيع الغرب الاستعماري إلى ضرب مفاعل تموز النووي سنة ١٩٨١ وسعت المخابرات الصهيونية إلى تتبّع علماء الذرّة العرب وقتلهم.

فمشروع الوحدة العربية لا يتحقّق إلّا بالاستقلال الذاتي للأمة العربية وامتلاكها للعلم والتكنولوجيا لأنهما الأداتان الأساسيتان والكفيلتان بتثبيت استقلالها الاقتصادي والسياسي؛ فلا استقلال ولا وحدة بدون امتلاك للعلم والتكنولوجيا، باعتبارهما قد صارا اليوم سلعة وأداة للأمبريالية تستعملهما للضغط على شعوب العالم الثالث وسلب حريتها[19].

فخارج العلم والتكنولوجيا لا تكون سيادة للأمة العربية.

على أن هذا يتطلّب أمرين أساسيين:

الأول: توظيف الثروة العربية البترولية واستثمارها داخل الوطن العربي، وذلك حتى تموّل بها النهضة العلمية والاقتصادية التي هي الأساس والدعامة الفعلية لتحقيق مشروع الوحدة العربية.

الثاني: أن يقع الحرص على دعوة العلماء العرب المهاجرين إلى الوطن الأم، وذلك للمساهمة في النهضة العلمية، على أن يقع ضمان الحقوق المادية والمعنوية لهؤلاء العلماء حتى يكرِّسوا كامل جهودهم للبحث وحتّى لا يفرُّوا من جديد إذا لحقهم الضيم.

إن الثروة الأساسية للأمة العربية ليست في البترول، وإنّما في توظيف عائداته لتكوين الانسان وصناعة العلم والتكنولوجيا، فبذلك يكون للوطن العربي أن ينتقل من استهلاك العلوم والتقنيات الحديثة إلى انتاجها والسيطرة عليها.

والرأي عندي أن السيطرة على العلم والتكنولوجيا التي هي الطريق المعبَّد لتحقيق مشروع الوحدة لا تكون متاحة إلا إذا عمل المثقفون العرب على دمج العلم في ثقافتنا، وربط ثقافتنا بالعلم، وذلك حتّى تخطو الخطوات الحقيقية نحو التنمية الفاعلة التي بها يتخلَّص الوطن العربي من المديونية والإعانات الخارجية المشروطة وأنواع التعاون الخفية السرية المشبوهة[٢٠]. فالعلم اليوم حاضر في مجتمعنا ممثَّلاً في جامعاتنا ومعاهدنا «حضور الجسم الغريب لا يؤسّسه ولا يتأسَّس به»[٢١].

ولكي يقفز الوطن العربي قفزته النوعية لا بدّ أن يكون للعلم في المجتمع العربي «حضور الجسم الساري في محيطه الفاعل فيه والمتفاعل معه»[٢٢]، وأن يكون للثقافة دور المُعَدِّل والمُوَجِّه لهذا العلم حتى يندمج في حياة المجتمع المادية والفكرية والروحية، باعتبار أن التقدم الحقيقي للوطن العربي هو «العلم حين يصبح ثقافة»[٢٣]، وأن التخلّف بتناقضاته ومفارقاته الاجتماعية هو «الثقافة حين لا يؤسِّسها العلم»[٢٤].

المهمة السادسة: هي أن يحقّق المثقف ـ بأدبه ـ العلاقة الصعبة والمعقّدة بين خصوصية الأدب والسياسة، وذلك بألّا يقع اختصار أو تغييب أي أدب يجعل من السياسة مداره ومحوره، إذ لا بدّ أن يكون الأدب في المرحلة القادمة شاهداً على حالات القمع والتعذيب السياسي الذي توقعه أنظمة الحكم الفاشية بالمعارضين من رعاياها.

إن شهادة المثقفين الصادقين على ممارسات الواقع الخاطئة ستدفع بالمواطنين إلى أن يكونوا أكثر نضجاً وإحاطة بالحقيقة، وستدفع كذلك بالأنظمة القطرية إلى أن تكون أكثر وطنية وإحساساً بضرورة بناء مشروع الوحدة انطلاقاً من أن عالم المستقبل ستحكمه التكتلات الضخمة التي ستنفي الكيانات القومية نفياً، وسيفرّق المثقفون الصادقون بين فئتين من المنادين بالوحدة: فئة تنادي بالتدرّج الضروري خوفاً من المزالق، وفئة أخرى تنادي بالتدرّج المفتعل لإخفاء عدم الرغبة في التوحيد.

وخلاصة القول إن أدباءنا ومثقفينا مطالبون في المرحلة القادمة بإبداع يهيّء الظروف الموضوعية والاجتماعية التي تستطيع فيها الجماهير العربية أن تكتشف قدرتها على مواجهة مختلف المؤامرات وجدارتها ببناء مصيرها، بحيث ينفي هذا الأدب المبسَّط الموجَّه للجماهير أسباب الإحباط والفشل الناتجة عن الانتكاسات المتتالية، فيستطيع المجموع العام للأمّة **بقيادة سلطة المثقفين** أن يحثّ الخُطى ـ بضغطه على السلطة ـ نحو الديمقراطية والعدالة والمساواة و«تشييد الكيان الوحدوي على أعمدة وأقواس تمثِّل الإرادة العامة للشعب العربي»[٢٥]. فكيف يمكن ـ ومهمّة المثقفين على ما هي عليه من الأهميّة ـ كيف يمكن للمثقفين العرب أن يربطوا أدبهم بالفاعلية والجدوى فلا ينساقوا فيه إلى حيث تريد القوى المعادية للأمّة، وكيف يمكن أن يكونوا هم أنفسهم فاعلين؟

ذلك ما يمكن الجواب عليه في بحث آخر.

تونس

هوامش:

(١) كلمة مجلة الوحدة ـ عدد ٦٦ ـ السنة السادسة ـ ص ٤ ـ سنة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤ ـ ٥.

(٣) ج. الوطن، ٧ تونس في ١١ يوليو ١٩٩٠.

(٤) مجلة الوحدة، عدد ٦٦، ص ٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) Emannuel Berl& Nasser tel qu'on le loue, p 24 - 25 Edition, Gallimard, 1968.

(٨) Nasser tel qu'o n le loue p 28 - 29.

(٩) CharlesKrauthammer, Stopper Saddam Hussein, le point, p 13, 19, Aout 1990.

- Claude Imbert, pas de quoi pouvoir,le point, No 934, 19 Août 1990.

(١٠) حنفي اسماعيل بربوتي ـ حركة القومية العربية في ميزان التقييم التاريخي بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ ـ مجلة المستقبل العربي، ص ٢٣، العدد ١٣٧ ـ بيروت لبنان، ٧/١٩٩٠.

(١١) Claude Imbert-pas de quai pouvoir le point, No 934 - 19 Août, 1990, p 7.

(١٢) محمود معياري: الهوية الدينية وعلاقتها بالهويات الأخرى بين الفلسطينيين في اسرائيل ـ مجلة المستقبل العربي ـ ص ٦٦ ـ العدد ١٣٧ ـ بيروت ـ لبنان ١٩٩٠.

(١٣) حنفي اسماعيل بربوتي ـ حركة القومية العربية في ميزان التقييم التاريخي ـ مجلة المستقبل العربي ـ العدد ١٣٧ ـ ص ١٧.

(١٤) المصدر نفسه.

(١٥) من التجارب الوحدوية، الوحدة التي أقامها عبد الناصر بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ وانتهت سنة: ١٩٦١.

ـ حاول البعثيون إقامة وحدة ثلاثية بين مصر وسوريا والعراق في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٣.

- وحاولت الجماهيرية الليبية سلسلة من الاتحادات:
★ عام ١٩٦٩ مع السودان وسوريا.
★ وعام ١٩٧١ مع مصر وسوريا.
★ وعام ١٩٧٢ مع مصر.
★ وعام ١٩٧٤ مع تونس.
★ وعام ١٩٨٠ مع سوريا.
★ وعام ١٩٨٤ مع المغرب.
(أنظر مجلة المستقبل العربي، العدد ١٣٧، ٧/١٩٩٠، ص ١٨).

(١٦) هشام جعيط، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي: ٦٤، نقله إلى العربية المنجي الصيادي، طبع دار الطليعة، بيروت ١٩٨٤.

(١٧) محمد رضا السويسي: عبد الناصر: الناصرية والإسلام - جريدة الوطن، ١٤، السنة ١، العدد ٨ - تونس - الأربعاء ٣ محرم ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

(١٨) من حديث العقيد معمر القذافي لجريدة الحرية: ٧ - تونس، الخميس ٩ آب ١٩٩٠.

(١٩) Le professeur Mohamed Larbi Bouguera - Il faut combler le fosse technologique, - Réaites No 251, p. 15, semaine du 24 au 30 Août 1990

(٢٠) هشام جعيط - لا بد من إثراء الفكر القومي بتصور جدلي حول الإسلام - مجلة المغرب العربي - ٦ - عدد ٢١٨، الجمعة ٢٨ سبتمبر ١٩٩٠.

(٢١) محمد عابد الجابري - التنمية هي العلم حين يصبح ثقافة - مجلة اليوم السابع: ٤٦، العدد ٣٢٨ - السنة السابعة - الاثنين ٢٠ آب (أغسطس) ١٩٩٠.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) حنفي اسماعيل بربوتي - حركة القومية العربية - مجلة المستقبل العربي، العدد ١٣٧ - ص ١٥ - بيروت - لبنان، ٧/١٩٩٠.

صدر حديثاً

المنام

مفكرة فيلم

محمد ملص

قال فيصل: «زي ما بيحكوا لنا أهالينا كيف نزحوا من فلسطين بالثمان والأربعين، تماماً، شفت إنه إحنا، أهالي المخيَّم، راكبين بشاحنات وحاملين أغراضنا، بس قال راجعين على فلسطين. بعد ما قطعنا «الناقورة» شفت بحيرة كبيرة، تطلَّعت وسألت أبوي عنها، قال لي «واك يا بابا، هاي طبريا، مش عارفها؟»

«حسّيت لحظتها من كلام أبوي إنه انشرح صدري، وصرت أتطلَّع، وشفت من الشاحنة الماشية الأرض خضرا خضرا، وكلها شجر زيتون.

«وبالمنام بس، وصلنا على فلسطين، ما شفت إلا كل أهالي المخيَّم صاروا يتفرّقوا وصار كل واحد يروح على بلده... يلِّلي من حيفا راح على حيفا، ويلِّلي من يافا راح على يافا... وشفت حالي بقيت لوحدي، وكلّ أصحابي يلِّلي معاي بالمدرسة، راحوا. حسّيت بوحدة شديدة. صرت أقول لحالي: يا ريت نرجع نحن يلِّلي عايشين بالمخيَّم نعمل بلد صغيرة، بلد أو قرية أو مخيَّم، يعني شيء زيّ شاتيلا يلِّلي كنا عايشين فيه... ورحت دغري أدوّر على أصحابي تقول لهم: تعالوا نعمّر بلد بقلب فلسطين تجمعنا مع بعض وتكون زيّ المخيَّم، بس لحظتها فقت.»

منشورات دار الآداب